آثار المجاعات والأوبئة على تراجع الحرف والصناعات بالمغرب الأوسط في العهد الزياني

أ.د خالد بلعربي

جامعة سيدي بلعباس

تعد المجاعات والأوبئة من أخطر الكوارث التي هددت مجتمع المغرب الأوسط بالفناء خلال العهد الزياني (633- 962 هـ/ 1235- 1554م)، وإذا كان لهاتين الكارثتين دور في تقليص عدد سكان المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، فإنّ انعكاساتهما كانتا خطيرة على اقتصاد البلاد. إذ أنّ الانهيار السكاني الذي شهدته بلاد المغرب الأوسط في هذه الفترة كان كفيلا بتعطيل كافة أوجه الاقتصاد، ومنها الصناعات والحرف التي عرفت تراجعا حادا بسبب قلة الصناع والحرفيين من جهة، والوهن والضعف الذي أصاب أولئك الذين ابتلوا بالجوع.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع الذي يؤرخ لفترة هامة في خارطة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الأوسط في العصر الوسيط، فإنّه لم ينل حظه الكافي من البحث والاستقصاء في الدراسات التاريخية الحديثة، باستثناء بعض الإشارات الخفيفة عنه أثناء الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية بصفة عامة، ينهض دليلا على ذلك ما كتبه الدكتور عبد العزيز فيلالي حول تلمسان في العهد الزياني(فيلالي،ع، 2002)، أو ما كتبه الدكتور الحساني مختار حول الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الزياني (الحساني،ح، 1986)، وهي كلها محاولات لفك مضمرات هذا الموضوع وتوضيح ما يلفه من غموض، دون معالجته كدراسة مستقلة، كما أنّ المصادر التاريخية أقصت هذا الموضوع من دائرة اهتماماتها، ولم يخرج سوى ابن خلدون عن قاعدة الإقصاء حين أكد على الضرر الذي يلحق بالسكان

والعمران من جراء هاتين الظاهرتين مقدما لنا وصفا دقيقا عن وباء الطاعون الذي ضرب بلاد المغرب سنة(749 هـ / 1348م) والذي كان قد عاصره، ومما قاله بهذا الخصوص: " نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة، من الطاعون الجارف. الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها جاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وقل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتوادعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض أتفاض البشر، فخرجت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم ... " (ابن خلدون، ع، 1986: 53).

وبالمثل تكاد الإشارات تنعدم حول هذا الموضوع في كتب التراجم باستثناء ما ارتبط بكيفية عفوية بسيرة بعض العلماء والأدباء، بيد أنّ كتب التصوف ألقت بعض الأضواء على هاتين الكارثتين بحكم تعاطف المتصوفة مع الحرفيين والصناع الذين أصابهم الوهن بسبب الجوع والأوبئة، ويمكن اعتمادا عليها في سد هذه الفجوة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ورسم الخطوط العريضة لهذا الموضوع.

على محك هذه الملاحظات المصدرية، نسعى في هذا البحث إلى إلقاء الضوء على جوانب من الآثار التي خلفتها المجاعات والأوبئة على تراجع الحرف والصناعات في المغرب الأوسط في فترة محددة وهي العهد الزياني محاولين تعقب السؤال التالي: ما هي تأثيرات الأوبئة والمجالات التي عرفها المغرب الأوسط على حركية النشاط الحرفي والصناعي؟

لا مراء في أنّ المجاعات والأوبئة شكلت خطرا حقيقيا على حياة سكان المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، ذلك أنّ النتائج الاقتصادية التي تمخضت عنهما ساهمتا في تكوين جزء كبير من مصير الأحداث التي

عرفها المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، فالمجاعة التي تعرض لها المغرب الأوسط سنة (698هـ/ 1299م)، والتي استمرت إلى غاية(706 هـ/ 1306م)، كان لها وقع شديد على سكانه، وكانت ناتجة عن الحصار الذي فرضه المرينيون على عاصمة الدولة الزيانية تلمسان والذي دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر، ومهما يكن فقد كانت هذه المجاعة قاسية وتأثيراتها الاقتصادية بادية خاصة على مجال الصناعات والحرف التي عرفت تقلصا كبيرا جراء قلة الصناع والحرفيين الذين هلك أغلبهم من الجوع، حتى أنّ من المؤرخين من يشير إلى أن عاصمة الدولة الزيانية أصبحت خالية من سكانها الذين كان عددهم يفوق مائة وخمسة وعشرون ألف نسمة على أقل تقدير(83 : brosslard ,ch,1859)

لقد تسببت هذه المجاعة في تراجع الكثير من الصناعات والحرف التي اشتهرت بها بلاد المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، كصناعة النسيج، وصناعة الجلود، وحرفة طحن الحبوب وحرفة تجفيف التين والعنب، وغيرها من الحرف والصناعات(فيلالي، ع، 2002: 223)، ويعطينا ابن أبي زرع الفاسي صورة عن الانهيار والخراب الذي لحق بتلمسان جراء الحصار الذي تعرضت له من قبل أبي يعقوب يوسف المريني بقوله: "وأضعف أهل تلمسان بشدة الحصار حتى أشرفوا على الهلاك" (ابن زرع،أ، 1972: 386)، ولنّا أن نتصور حجم هذه المعاناة وتأثيراتها على الحرف والصناعات، وإذا كان مصير تلمسان بفعل هذا الحصار وما سببه في تراجع الصناعات، فكيف كان حال بقية مدن المغرب الأوسط ومصير الصناعة بها كوهران، وهنين، ومزغران، وتنس وشرشال، وبرشك والبطحاء ومازونة والونشريس ومليانة والمدية، وبلاد مغراوة الذي كانوا خاضعين لسلطة المرنيين خلال هذه الفترة ؟.

كما حدثت في بلاد المغرب الأوسط مجاعة عظيمة سنة(776 هـ/ 1374م)، وقد عاصرها يحي بن خلدون فوصفها بقوته "أنها نتجت عن إعصار عظيم، أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها، فأكل النّاس بعضهم بعضا، وافتقروا إلى ما لدى السلطان" (ابن خلدون، ي، ج2، 1910: 11). وبالمقابل اشتكى أحد السراة الميسورين وهو أبو العباس أحمد الشهير بابن قنفذ القسنطيني من ارتفاع سعر المواد الغذائية في تلمسان جراء هذه المجاعة؛ إذ لم يستطيع تحمل النفقة الباهضة التي كانت تكلفة يوميا أربع دنانير ذهبا(ابن قنفذ،ق،1965: 105).

انطلاقا من الصورة التي قدمتها مختلف المصادر حول الأضرار التي لحقت بسكان تلمسان بسبب هذه المجاعة، فإنّنا لا نتصور أن تكون بقية مدن المغرب الأوسط أحسن حالا منها، إذ تزخر كتب النوازل بإشارات كثيرة حول تأثر الكثير من مدن المغرب الأوسط بهذه المجاعة(الونشريسي،أ، ج7، 1982: 62-82).

وطبيعي أن تنعكس هذه الأوضاع سلبا على الصناعة، وذلك أنّ من الآثار التي أفرزتها هذه المجاعة على المستوى الصناعي، قلة الصناع والعمال، مما تسبب وتخريب المصانع، واندثار الكثير من الحرف، حيث "درست السبل والمعالم"حسب تعبير ابن خلدون (ابن خلدون، ع، 1968، 53). والواقع أن الكثير من النصوص تتحدث عن النشاط الصناعي الذي عرفته الدولة الزيانية قبل حدوث هذه المجاعة، فقد وصف يحي بن خلدون دار الصناعة التي بناها السلطان أبو حمو موسى الثاني والتي كانت تستقطب الصناع على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وديانتهم، فمن دراق ورماح ودراع، وسراج، ونجار، وحداد وصانع ودباج، فتصطك لأصواتهم وآلاتهم الأسماع(ابن خلدون، ي، 1910: 161)، كما أشار القلقشندي إلى العديد

من المواد المصنوعة التي كانت بتلمسان خلال هذه الفترة كالأغطية الملونة، وصناعة الزرابي، والجلود والحقائب والأحذية وغيرها من الصناعات التقليدية التلمسانية(القلقشندي، م، 1915: 114)، غير أنّ هذه الصناعات والحرف تراجعت بعد مجاعة سنة 776هـ/ 1374م، بل تسببت هذه المجاعة في خراب المغرب حسب تعبير ابن قنفذ القسنطيني(ابن قنفذ، 1965: 107). وبناء على ذلك نعتقد أنّ شريحة كبيرة من الصناع والحرفيين تضررت جراء هذه المجاعة.

وقد تفشى وباء الطاعون في عهد السلطان أبو سعيد عثمان الثاني (749 – 753 هـ / 1348 – 1352م)، فقض على خلق كثير من النّاس في المغرب الأوسط وكانت عاصمة الدولة الزيانية أشد تضررا منه؛ حيث فتك بعائلات بأكملها، مثلما حدث لأسرة حفيد العالم التفريسي التلمساني التي انقرضت كلها من جراء هذا الوباء القاتل(ابن مرزوق، مخطوط، ورقة 14-20)، ولعل ما يزكي هذا الطرح رواية أبي عبد الله الخطيب بن مرزوق الذي قال عنه "كان للحاج، يوسف بن يحي حفيذ العالم التفريسي، أولاد انقرضوا في هذا الوباء ". كما ينفرد صاحب نفاضة الجراب بالحديث عن وباء الطاعون هذا الذي أصاب المغرب "ووجدنا الطاعون في بيوتهم قد نزل، واحتجز منهم الكثير إلى القبور .. " (ابن الخطيب، ل، 1989: 35).

تعوزنا المعلومات الكافية للوقوف على مدى تأثير هذا الوباء على الصناعات والحرف التي اشتهرت بها بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، باستثناء ما أورده ابن خلدون الذي قال عنه " نزل بالعمران شرقا وغربا، في منتصف هذه المائة الثامنة، من الطاعون الجارف ... انتفض عمران الأرض انتفاض البشر، فخربت الأمصار المصانع، ... " (ابن خلدون، ع، 1968: 53). نستشف من النص أنّ هذا الوباء قد قضى على

الكثير من الخلق، كما أدى إلى تخريب المصانع التي كانت موجودة بالمغرب الأوسط الزياني، وبالتالي تراجع الحرف والصناعات به.

كما أنّ عودة وباء الطاعون إلى بلاد المغرب الأوسط في عهد حكم السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ / 1359- 1389م) قد أدى إلى موت الكثير من الخلق، وظهر تأثيره على الصناعة من خلال ظاهرة الضمور السكاني التي هي بطبيعة الحال القوة المنتجة، وبالتالي اندثار الكثير من الصناعات والحرف جراء هذا الوباء القاتل، وتطاول الضرر إلى طمس المراكز الصناعية التي كانت تضم الكثير من الحرفيين والصناع مثل دار الصناعة التي أنشأها أبو حمو موسى الثاني سنة(766هـ/ 1365م)، ويقول في هذا الصدد ابن ثغري" فأغلقت دار الصناعة لعدم الصناع " (ابن ثغري، ب، 1966: 115). ويرجع بعض المؤرخين إلى تراجع الصناعات والحرف بعد هذا الوباء الذي صرب المغرب الأوسط إلى الصراعات على السلطة بين فروع الأسرة الزيانية الحاكمة وما نتج عنها من حرب عنيفة بين أبو حمو موسى الثاني وابنه عمه أبا زيان بن سعيد في الفترة الممتدة بين (762هـ/ 1361م) إلى غاية (789 هـ/ 1387م)، هذه الحرب أثرت كثيرا على المنظومة الإنتاجية في شموليتها، فقد تضررت منها حتى الصناعة، يذكر أحد الباحثين" أن توقف المصانع يكون بسبب الأزمة والفتن التي تعصف بالبلاد، وكثرة الحروب التي تعرقل نشاط الصناع " (بوتشيش، أ، 2002: 96).

لقد صارت تلمسان عاصمة الدولة الزيانية بعد هذا الوباء القاتل الذي ضربها أثرا بعد عين، إذ هدمت مصانعها وخربت معالمها، وهجر كثير من الحرفيين منها، وانعدمت المنتجات الصناعية في الأسواق والحوانيت. مما دفع بالسلطان أبا حمو موسى الثاني الاستعانة بالحرفيين والصناع الأندلسيين

خلال هذه الفترة، محاولة منه بعث النشاط الصناعي في دولته بعد هذا الوباء الجارف الذي قضى على الكثير من المصانع، وأدى إلى موت الكثير من الخلق كان من بينهم الحرفيين والصناع(فيلالي،ع، 2002: ج1، 176)، استطاع هؤلاء الأندلسيين من إقامة مصانع هامة بعاصمة الدولة الزيانية خاصة أنهم كانوا يملكون رؤوس أموال كبيرة فعملوا على تطوير مختلف الصناعات من طرز ونسيج للحرير، وحياكة القطن وغزل الصوف، وقاموا بتطوير صناعة الفخار والخزف وغيرها من الصناعات، ويؤكد ذلك المؤرخ ابن الأعرج بقوله: " وكان لعهد نزول الأندلسيين بها (تلمسان)، مزدانة بالمصانع المفيدة، فما شئت من أطرزة، ومنسوجات الحرير والقطن والكتان والصوف، ومعامل الفخار والخزف وأنواع السلاح، وسائر الأواني المنزلية" (ابن الأعرج، مخطوط 170، ورقة 96-97)، وفي موضع آخر يقول"نشروا بين النّاس آدابهم وراجت مصانعهم .... " (ابن الأعرج، مخطوط 170، ورقة 100).

وفي المنحى نفسه، عرف المغرب الأوسط في العهد الزياني وباء طاعون سنة (845 هـ/ 1441م) الذي أجمعت المصادر على أنه أتى على الصغار والضعفاء، بل لم ينجو منه حتى العلماء، فقد توفي به عالم تلمسان ومفتي بلاد المغرب الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن المغراوي الشهير بابن زاغو (ابن الأعرج، مخطوط 170، ورقة 99)، وهو دليل على أن هذا الوباء أصاب العامة والأسياد والشيوخ بدون تمييز(ابن زرع،1972: 273)، حدث هذا الوباء القاتل في عهد حكم السلطان الزياني أبو العباس أحمد العاقل أبي حمو موسى الثاني (834- 866 هـ / 1431- 1462م) والذي عرفت في عهده الدولة الزيانية نوعا من الاستقرار السياسي والتطور الفكري والرخاء الاقتصادي، لكن وباء الطاعون الذي حل بدولته سنة (845ه/ 1441م)ـ أثر كثيرا على الجانب الصناعي في الدولة؛ حيث أنّ هذا

المرض المعدي أدخل الدولة الزيانية في عزلة جبرية منع سكانها من ممارسة نشاطاتهم فتراجعت الكثير من الصناعات والحرف، وتعطل النشاط الاقتصادي(بشاري، ل، 1986-1987: 196)، وعم الاضطراب أرجاء المغرب الأوسط، وتصاعدت الضرائب، مما كان له انعكاس سيئ على الحرفيين والصناع، ورغم المحاولات التي قام بها السلطان أبو العباس العاقل للتخفيف من أثر هذا الوباء القاتل عن طريق المساعدات التي قدمها للسكان، إلا أنّ ذلك لم ينع شيئا، إذ بقي النشاط الصناعي يعرف ركودا إلى غاية سنة (866 هـ / 1462م)، وهو تاريخ اعتلاء أبو عبد الله محمد الثالث المتوكل عرش الدولة الزيانية(السعداوي،أ، العدد 175، 1995: 119).

وبعد، فتلك محاولة أولى للنبش في ملف آثار الأوبئة والمجاعات على تراجع النشاط الحرفي والصناعي، نرجو أن تعقبها محاولات أخرى من طرف الباحثين و المتخصصين حتى تكتمل جوانبه.

قائمة المصادر والمراجع

– عبد العزيز فيلالي(2002)، تلمسان في العهد الزياني (جزأين)، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر.

- الحساني مختار(1986 – 1987)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الزيانية، دكتوراه، الحلقة الثالثة (مرقونة) معهد التاريخ، جامعة الجزائر

-.ابن خلدون عبد الرحمن (1968)، المقدمة منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

- ابن أبي زرع(1972)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط .

-يحي بن خلدون(1903، 1910)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، نشر و ترجمة إلى الفرنسية ألفرد بل، مطبعة غرناطة الجزائر، ج2.

-ابن قنفد القسنطيني(1965)، أنس الفقير و أعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط.

- المعيار للونشريسي(1981)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط ودار الغرب الإسلامي، بيروت،ج 7.

-القلقشندي(1915)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء المطبعة الأميرية القاهرة،ج 5 .

-ابن مرزوق المجموع، ميكروفليم، الخزانة العامة، المملكة المغربية رقم 20 ورقة 14.

-.ابن الخطيب لسان الدين(1989)، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق وتحقيق فاغية السعدية، مطبعة النجاح، الجديدة، الدار البيضاء.

-ابن ثغري بردي(1966)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة.

- ابراهيم القادري بوتشيش(2002)، تراث الغرب الإسلامي و تاريخه الاقتصادي و الاجتماعي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى.

-ابن الأعرج، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، الخزانة الحسنية الرباط، مخطوط رقم 170 ورقة 96-97.

-بشاري لطيفة(1986 – 1987)، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع الهجري إلى القرن الثامن الهجري، رسالة ماجستير (مرقونة) معهد التاريخ، جامعة الجزائر .

-السعداوي أحمد(1995)، المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون، الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته، القرنين(8-9هـ / 14-15م)، مجلة ايبلا، العدد 175.

.Brosslard (Ch) .les inscriptions arabes de Tlemcen, revue africaine n°= 14 .3éme année 1859 . Alger p 83.